

المدرسة الوطنية العليا في الأمن السييرياني

مادة تاريخ الجزائر / History of Algeria

ENSICS 2025-2026

First year (S1)

Pr. BOUSLIMANI Abderrahmane

الدرس الثالث

الجزء خلال العهد العثماني

1830-1519

مقدمة

دخلت الجزائر مرحلة جديدة من تاريخها ابتداء من سنة 1519م، بعد أن قررت مواجهة الاحتلال الإسباني بالتعاون مع العثمانيين، وهكذا بدأ عهد الخلافة العثمانية في الجزائر والذي دام أكثر من ثلاثة قرون، عرفت الجزائر خلاها تطورات سياسية واقتصادية وثقافية هامة.

1-الظروف الدولية والإقليمية:

• شهدت أوائل القرن 16 أزمة حادة أسفرت عن انهيار بُنٍ الدول القديمة في المغرب العربي وما انطوت عليه من توازنات. وبفضل تدخل العثمانيين في الجزائر، تخضت هذه الفترة عن نظام جديد، أحدث في نهاية المطاف استقراراً استمر حتى أوائل القرن 19 الذي وقعت فيه أزمة بنوية أندّرت بقدوم السيطرة الاستعمارية.

-أزمة القرن 16 والحل العثماني: The sixteenth-century crisis and the Ottoman solution in Algeria

أصابت هذه الأزمة العالم العربي بأسره، كانت أزمة اجتماعية وسياسية نتجت عن عوامل ضعف توحيد المجتمع (أي القوى السياسية والعسكرية وجماعات كبار التجار وطائفة العلماء) كما كانت أزمة اقتصادية في عميقها بسبب تغيير مسارات الطرق التجارية الرئيسية. كما كانت أيضاً أزمة ثقافية انطوت على تغير الأزمة المتعددة الوجوه في فترة بالغة الخطورة شهدت ميلاد عالم منافس هو أوروبا التي كانت تستيقظ اقتصادياً وسياسياً وثقافياً. وكان العثمانيون القاطنوون على مشارف العالم الإسلامي هم وحدهم الذين تكيفوا مع الزمن بعض الشيء باستعمال عدد من التقنيات والأفكار الحديثة بما في ذلك الأسلحة النارية والتنظيم العسكري والإداري الكفاء. وكان الرد العثماني على تحديات تلك الفطرة، منفذًا للمجتمع الجزائري الذي غالب عليه الانحطاط وتعرض لأخطار خارجية.

• وفي الفترة من عام 1505 حتى عام 1547، حاول الملوك الإسبان توطيد أقدامهم على الشواطئ الجزائرية، أهمها حملات يدرو نافارو بين عامي 1505 و1511 (ضد وهران وبجاية)، وحملات إمبراطور الرومان المقدس بين عامي 1935 و1541، وأخيراً حملات دون خوان النساوي الذي انتصر على العثمانيين في معركة لبيانتو. غير أن مكاسبهم ظلت مع ذلك محدودة إذ لم يلبث أن تبين أن غزو داخل الجزائر وتنصير سكانها أمر مستحيل. واكتفى الإسبان باحتلال عدد من المدن (وهران من عام 1509 إلى عام 1708 ثم من عام 1732 إلى عام 1798).

• كان أول من أعلن الحرب من العثمانيين على الإسبان في الجزائر وإن كان باتفاق مع الأمراء المحليين وبمساعدة من السكان المحليين - الأخوين باربروسا (عروج وخير الدين من بداية القرن 16 حتى عام 1519). وبعد هزيمة عروج ومقتله في حوالي ذلك التاريخ، بايع خير الدين السلطان العثماني واستنجد به وبذلك نشأت أول إمارة عثمانية في المغرب العربي وهي الجزائر.

• وبفضل الانكشارية والأسلحة التي تلقوها من إسطنبول، استطاع خير الدين باشا وخلفاؤه من بعده، ولا سيما صالح رais (1552-1556) وعلج علي (1568-1587)، أن يخضعوا الجزائر تدريجياً. وظل شمال إفريقيا مسرحاً لصراع طويل بين الإسبان والجزائريين المدعومين من الباب العالي استمر حتى تحرير وهران عام 1792.

2-مراحل الحكم العثماني في الجزائر:

- خضعت الجزائر لنظام عسكري سياسي مباشر ومطلق من الباب العالي تحت حكم البایلربای، واستمر هذا الوضع إلى غاية استشهاد البایلربای علی علی عام 1587. وولت إسطنبول بعد هذا التاريخ حاکم جديد برتبة باشا (الباشوات 1587-1659) يعاونه مجلس من كبار الضباط العثمانيين يسمى الديوان. وكانت قيادة الإنكشارية تولى مسؤولية الدفاع عن البلاد وتحفظ القدر الأدنى من الأمان، وكانت بمثابة دعامة للنظام الجديد.
- وحققت الجزائر قدرًا كبيرًا من الاستقلال تجاه إسطنبول منذ أوائل القرن السابع عشر وإن احتفظ الباشا بقدر من امتيازاته حتى عام 1659 عندما استولى ديوان الأغوات (كبار الضباط) على السلطة. لتببدأ مرحلة حكم الأغوات (1659-1671) التي لم تدم طويلاً لأن أحد الدايات نجح في عام 1671 في الاستيلاء على السلطة مثلاً لقيادة ریاس البحر (القوات البحرية) أولاً ثم لقادة الإنكشارية بعد ذلك، ومع ذلك بقيت سلطة الداي ضعيفة. ففيما بين 1671 و1710، شغل هذا المنصب السامي أحد عشر دايًا كان نصيب أكثرهم العزل أو القتل (داي واحد فقط مات ميته طبيعية) أثناء حركات التمرد التي قام بها الإنكشارية. وبذلك يتضح أن نظام الحكم في الجزائر كان نظاماً عسكرياً أصبح ديمقراطياً خلال القرن 17 لفائدة الطبقة التركية وحدها نظراً لعدم وجود جماعة قوية من السلطات المدنية المحلية القادرة على ممارسة نفوذها على النظام السياسي.

• وكان الكولوغلي (المولدين لأب تركي مهاجر وأم جزائرية) مبعدين عن الجيش وعن المناصب العليا، وهي سياسة كانت تثير المعارضة باستمرار. فقد نشبت ثورات عديدة في الشرق والغرب وأسفرت في النهاية عن تخفيض كبير للضرائب. وبالرغم من هذا حقق نظام dai الجزائري خلال القرن 18 مزيداً من الاستقرار والفعالية، حيث أنه في الفترة من 1710 إلى 1798، فإن سبعة دايات ماتوا ميتة طبيعية من جملة تسعة دايات تولوا هذا المنصب الرفيع. ويختص بالذكر في هذا الصدد حكم محمد بن عثمان الذي دامت ولايته من 1766 إلى 1791 أعطى خلاها الدولة الجزائرية استقراراً لا مراء فيه. وحقق بايات الأقاليم الثلاثة (التيطري، قسنطينة، معسکر-وهران بعد 1792-) تطوراً ملحوظاً نظراً إلى حسن اندماجهم مع السكان المحليين. وكان لهذه التطورات أن تقع في وقت لاحق في العاصمة نفسها حيث أقدم dai على خوجة في أواخر عام 1817 (توفي في مارس 1818)، بتأييد من الكولوغلي والزواوة، على إبادة قيادة الانكشارية، وبذلك قضى نهائياً على نفوذ قيادة الجيش. وكان من الممكن آنذاك أن يحدث تأمين سريع للنظام الجزائري، ولكن الغزو الفرنسي الذي وقع عام 1830 وضع حدّاً لتطور بدأ متأخراً أو في ظروف غير مواتية عندما أصبح اتساع الخلاف بين الرعايا وحكامهم حقيقة واقعة.

• وبجمل القول لقي النظام العثماني الجديد قبولاً حسناً في المدن التي كانت معرضة مباشرة لهجمات النصارى، كما لقي قبولاً حسناً عند رجال الدين ومن فئات الناس كأعيان المدن بوجه عام وباري أعيان الريف وجماعات بأسرها مثل قبائل المخزن. وقام في وجه العثمانيين جميع أولئك الذين كانوا قد استفادوا من حرية أوائل القرن 11 وأهل الأرياف الذين كانوا يتّبعون بنظامهم الاجتماعي والحضري الخاص. وكل ذلك اقتضى من العثمانيين أن يشنّوا حرباً طويلاً لإخضاع داخل البلاد ولا سيما مناطقه المفيدة وإقامة المعسكرات المسلحة هناك لجباية الضرائب وكفالة الحد الأدنى من النظام.

3-الوضع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للجزائر أثناء العهد العثماني:

- أتى النظام العثماني الجديد إلى الجزائر بما كانت في أمس الحاجة إليه وهو التوازن مع الأزمة الحديثة. فقد آتاه جيشاً منضبطاً يتقن استعمال الأسلحة النارية وإدارة مركبة نسبياً وجانباً من النقد المتداول في البحر الأبيض المتوسط يُجمع عن طريق القرصنة. وكان المجتمع الجزائري يشتمل على فئات اجتماعية واقتصادية هي: أهل المدن وفلاحو ضواحي المدن وال فلاحون شبه المستقرين، والرعاة الرحل الذين كانوا يرتحلون بعيداً عن أراضيهم، ورعاة الإبل الموجلون في الصحراء، وسكان الواحات. وكانت الطبقة الرئيسية في المدن تتألف من الأعيان ورجال الدين والتجار والكولوغرلي، وأخيراً بكار ضباط الجيش العثماني وبكار موظفي الدولة المدنين.
- وكان أهل الريف ينتمون إلى قبائل شتى. وكان النسب سرياً في اجتماع كثير من القبائل الصغيرة من حول شيخ منتخب يعاونه على إدارة شؤون القوم مجلس يضم بكار رؤساء القبائل. وكان يوجد فوق القبيلة الصيف (جمعه صفو) وهو عبارة عن اتحاد من القبائل التي يربط بينها حلف. وكان الناس ينتظمون داخل هذه الوحدات إما في إطار منطقة بيئية واحدة أو في إطار جماعات من مناطق اقتصادية مثل رعاة الإبل ورعاة الأغنام والفالحين. وقد نجحت بعض الجماعات الإقليمية في إيجاد قيادة مركبة ثابتة على المدى الطويل، مثل قيادات الطوارق الكبرى في جنوب الجزائر التي يوجد على رأس كل منها أمين عقال.

• ويكتاز القرن السابع عشر بازدياد الاستقرار الإقليمي وما يتربّ عليه من قلة الاضطرابات، وبتعزّز المخزن (القبائل المتحالفه مع العثمانيين) ونظام الصف.

• وفي حين أن أكثر أهل الأرياف كانوا من الناطقين بالعربية، ظلت جماعات كبيرة تتكلّم باللغة الامازيغية. وكانت تلوذ بمناطق جبلية مثل الاوراس وجوجة. وكانت الجماعات الامازيغية أنجح من الجماعات العربية في مقاومتها للعثمانيين. والسبب في ذلك هو المناطق الجبلية التي لاذت بها ونظام دفاعها المحكم. وساعدتها نجاح مقاومتها على الاحتفاظ بروابط قوية بشّي صور الثقافة الامازيغية. واحتفظت بهويتها الامازيغية وباستقلالها فرفضت دفع الضرائب، واستعربت منها الجماعات التي لم تستطع الحفاظ على استقلالها. ومن جهة أخرى، أصبحت بعض المناطق الامازيغية المزدحمة بالسكان، مثل منطقة القبائل، مناطق يُجند منها الجنود ليرسلوا للخدمة في الجزائر أو تونس وأطلق عليهم اسم زواوة.

• وكان للمدن إشعاعها في الجزائر وتأثيرها على المغرب العربي كله، وشملت تلك المدن الحواضر العريقة مثل قسنطينة وبجاية وتلمسان والجزائر التي ورثت تراثاً قيماً وتغذت بعطايا الأزمنة الحديثة تشهد انبعاث التجارة والصناعة ابتداءً من النصف الأول للقرن 17م، كما نمت صناعة النسيج الفاخر في هذه المدن. أما التجارة فقد انتعشت هي الأخرى في المدن الساحلية على الأخص بفضل القرصنة أولاً وما كانت تتحققه من منتجات ونقود، ثم بفضل العلاقات التي أقيمت مع الرأسمالية التجارية الأوروبية (الحبوب والمنتجات الزراعية). وأخذ الجانب الديني يفيق تدريجياً من غفوته بعد الازمة التي انتابته في القرن 16، وذلك بفضل الازدهار المادي النسبي للمدن وما ترتب عليه من زيادة عدد العقارات الموقوفة للمؤسسات الدينية. ويرجع هذا التحسن الديني إلى السلطات العثمانية الجديدة التي خصّت برعايتها علماء المذهب الحنفي بصفته مذهب الإمبراطورية أولاً ثم علماء المذهب المالكي السائد بين أهل البلد.

مدينة قسنطينة كما تبدو في رسم حجري فرنسي في القرن 19 م.

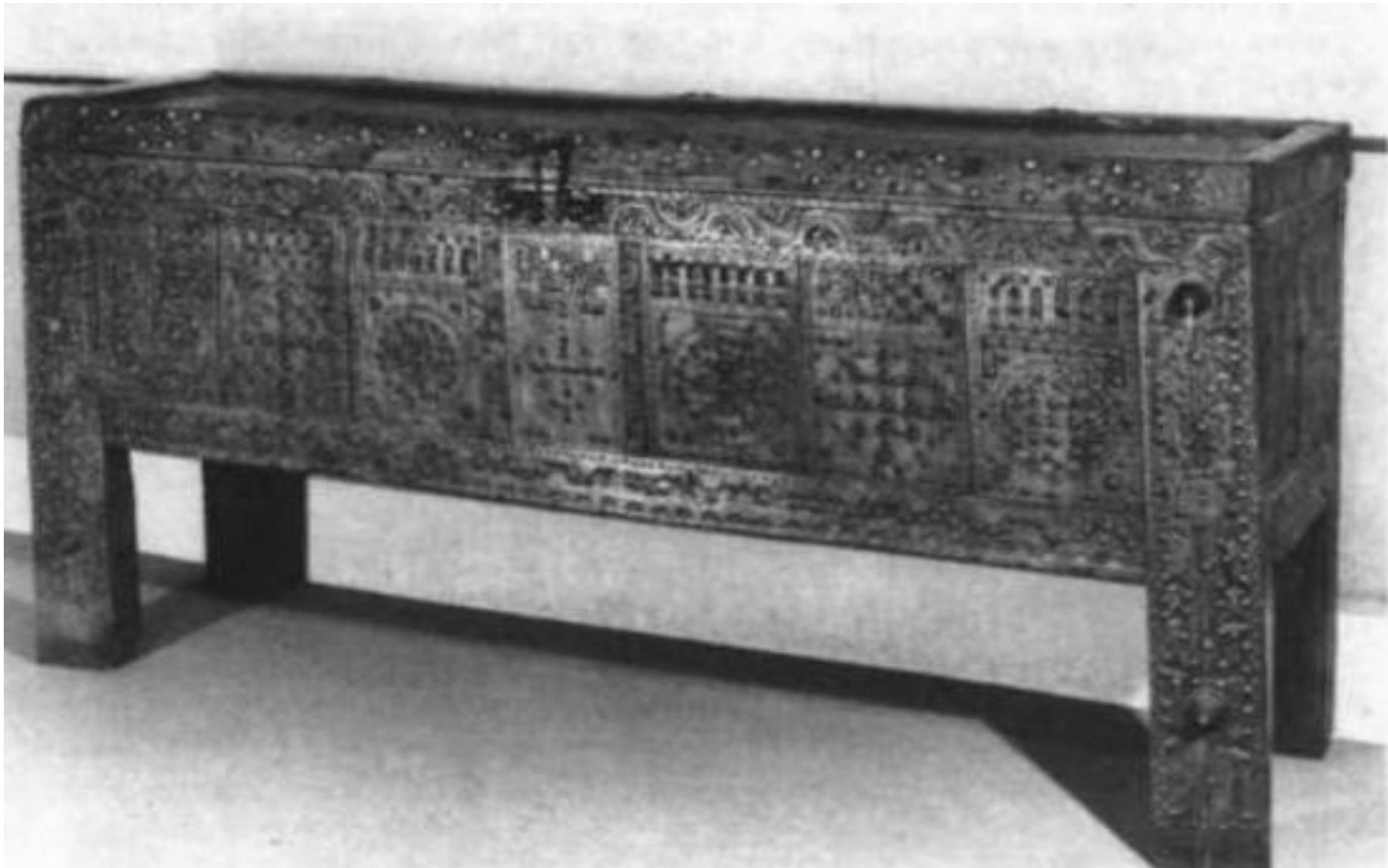
The city of Constantine, as portrayed in a nineteenth-century French lithograph



وشاح جزائري مطرز بالحرير الطبيعي مع خيوط ذهبية وفضية. يرجع عهده الى اواخر القرن 17 طوله 302 سم
Late seventeenth century Algerian embroidered scarf in natural silk, and gold and silver thread. Length: 302 cm



صندوق الزواج من قرية أغيل علي مصنوع من خشب الأرز والنحاس وال الحديد، يرجع عهده الى القرن 18. طوله 198 سم
Eighteenth-century wedding chest from Aghil-Ali (Algeria), made of cedar wood, brass and iron. Length: 198 cm



• وبينما كان حكام تونس وطرابلس يشركون بعض الأهالي تدريجيا في وظائف مستشارين وكتبة وحتى قادة عسكريين، فإن حكام الجزائر استبعدوا السكان الجزائريين وظلوا طوال فترة حكمهم غرباء عن أهلها تماما، ويرجع السبب في ذلك إلى ضعف طبقة الصفوّة، وخاصة في مدينة مثل الجزائر والتي أنشأ معظمها العثمانيين وكانت الصفوّة بها ضعيفة.

• وساهمت العائلات النافذة في تنشيط التجارة مع أوروبا، كأسرة القلي في قسنطينة وبوشلاغم في وهران، كما نجد أسرتين يهوديتين جزائريتين هما البكري وبوشناق اللتان اضطلعتا دوراً قياديًّا في علاقات الجزائر مع أوروبا في القرن 18 وأوائل القرن 19 م.

غطاء فضي للرأس مخروطي الشكل، من الجزائر يرجع عهده الى القرن 18، علوه 15 سم
Eighteenth-century silver conical headdress from Algeria. Height: 15 cm



كلمات ختامية

اجتازت الجزائر في القرن 16 أزمة حادة ترجع في مقامها الأول إلى عجزها عن التكيف مع عصر الأسلحة النارية. وقد زود العثمانيون الجزائريين بحلّ لهذه الأزمة بإنشائهم أجهزة عسكرية وإدارية حديثة قادرة على تأمين دفاعها الخارجي وعلى تحقيق الأدنى من الاستقرار الذي يتطلب بقاء المجتمع. غير أن العثمانيين حكموا الجزائر بقبضة من حديد مع استغلال كبير لمواردهم كلما تيسّر لهم ذلك مما أفسّم في ركود المجتمع. كذلك أثرت في تاريخ الجزائر العثمانية علاقتها بأوروبا المسيحية التي كانت مصدراً لكثير من وسائل الحداثة، وكان المستفيد الأول من هذه العلاقة هي الرأسمالية الأوروبية ثم الجزائر، وإن اقتصر ذلك على الفترة التي كان فيها أسطولها البحري العسكري قادرًا على حماية مصالحها في مواجهة خصومها الأوروبيين، أي حتى قرابة عام 1815 وهو التاريخ الذي يختتم فترة ويستهل فترة أخرى هي فترة الهيمنة الأوروبية المطلقة.